

(حكاياتُ جُحَا)

بِرْمِيلُ الْعَسَلِ



مكتبة الاديب كامل كيلاني
أول مؤسسة عربية لتثقيف الطفل
٢٨ شارع البستان - باب اللوق - ت: ٠٢٣٩٦١٤٥٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
﴿ فَاتِحَةٌ ﴾

إِلَى رُوحِ أَبِي الْأَعَزِّ الْأَعْلَى : « كَامِلٌ كِيلَانِي » .
بِالْأَمْسِ الْبَعِيدِ - وَأَنَا صَبِيٌّ فِي بُكْرَةِ الْعُمَرِ - وَجَّهْتَ إِلَيَّ الْحَدِيثَ .
سَجَّلْتَ مَا دَارَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ فِي مُقَدِّمَةِ لِسْلِسِلَةِ الْقَصَصِ الْجُحْوِيِّ .
زَفَفْتَ إِلَيَّ الْبُشْرَى بِأَنَّكَ عَثَرْتَ عَلَى جَوَابِ سُؤَالِي لَكَ .
لَقَدْ حَصَلَتْ عَلَى مَخْطُوطٍ قَدِيمٍ ، يَكْشِفُ لَنَا حَقِيقَةً غَامِضَةً :
أَنَّ الْقَصَصَ الْجُحْوِيَّ لَيْسَ كُلُّهُ خَيَالًا مِنْ صُنْعِ النَّاسِ .
ظَلَّ الْأَصْلُ التَّارِيخِيُّ لِلْقَصَصِ الْجُحْوِيِّ يَنْمُو ، بِفَضْلِ الْقُصَّاصِ .
أَكَانَ جَوَابُكَ عَنْ سُؤَالِي لَمَحَةً ، هَيَّأَهَا لِي الْقَدَرُ الْمُغَيَّبُ !؟ ..
أَكُنْتُ - حِينَ كَتَبْتَ مُقَدِّمَتَكَ تِلْكَ - تُرَشِّحُنِي لِعَمَلٍ فِي غَدَى !؟
أَكُنْتُ - يَوْمَئِذٍ - تُلْقَى عَلَى تَبِعَةٍ فِي شَأْنِ الْقَصَصِ الْجُحْوِيِّ !؟
هَآنَذَا - الْيَوْمَ - يَطِيبُ لِي بَذْلُ جُهْدِي فِي إِعْدَادِهِ وَإِخْرَاجِهِ ! ..
كُنْتُ - فِي صِبَايَ - مَشْغُوفًا بِهِ ، عَلَى أَنَّهُ مَادَّةٌ تَسْلِيَّةٌ وَتَرْفِيَةٌ .
لَقَدْ كَانَ - مَعَ ذَلِكَ - يُؤَثِّرُ فِي سُلُوكِنَا تَأْثِيرَ تَوْجِيهِ ! ..
الْقَصَصُ الْجُحْوِيُّ مُشَوِّقٌ ؛ لِمَا حَوَاهُ مِنْ فُكَاهَةٍ وَسُخْرِيَةٍ وَتَنْبِيهِ .
فِيهِ : عُصَارَةُ التَّجَارِبِ ، وَخُلَاصَةُ الْخِبَرَاتِ ، وَمُمَارَسَةُ الْحَيَاةِ .
وَلَدُكَ : « رَشَادُ »

تَمْهِيدٌ

وَلَدِي : « رَشَادُ » :

طَابَ صَبَاحُكَ وَمَسَاوُكَ .. اسْتَمِعْ إِلَى مَا أَنَا مُحَدِّثُكَ بِهِ .
كَثُرَ تَرَدُّدُكَ لِسُؤَالٍ ، وَأَنَا أَقْصُ عَلَى سَمْعِكَ الْقَصَصَ الْجُحْوِيَّ .
هَذَا السُّؤَالُ هُوَ : مَا مَصْدَرُ ذَلِكَ الْقَصَصِ الْمُعْجِبِ الشَّائِقِ ؟
إِذْ لَا شَكَّ أَنَّ الْقَصَصَ الْجُحْوِيَّ لَهُ مَصْدَرٌ تَارِيخِيٌّ أَصِيلٌ .
لَمْ أَكُنْ أَسْتَطِيعُ أَنْ أُجِيبَكَ عَنْ هَذَا السُّؤَالِ ، مِنْ قَبْلُ .
لَقَدْ كَانَ مَصْدَرِي هُوَ مَا سَمِعْتُهُ مِنْ رِوَاةِ الْأَسْمَارِ وَالْأَحَادِيثِ .
أَمَّا الْيَوْمَ ، فَأَصَارِحُكَ بِمَا وَقَفْتُ عَلَيْهِ مِنْ مَصْدَرٍ مَكْتُوبٍ .
عُثِرْتُ أَخِيرًا - لِحُسْنِ حَظِّي وَحَظِّكَ - عَلَى مَخْطُوطٍ جُحْوِيٍّ قَدِيمٍ .
كَتَبَهُ ابْنُ أَخِيهِ « أَبُو السَّبْهَلِ : طَارِقُ بْنُ بَهْلَلٍ بْنِ ثَابِتٍ » .
كَانَ الرَّجُلُ مَعْنِيًا بِتَسْجِيلِ مَا لِعَمِّهِ « جُحَا » مِنْ مُلَحٍ وَطَرَائِفَ .
شَأْنُهُ فِي ذَلِكَ الصَّنِيعِ ، شَأْنُكَ أَنْتَ وَبَقِيَّةُ إِخْوَتِكَ مَعِي .
إِبْتَهَجْتُ بِهَذَا الْمَخْطُوطِ ؛ لِأَنَّهُ كَشَفَ لَنَا عَنْ حَقِيقَةِ بَارِزَةٍ :
أَنَّ شَخْصِيَّةَ « جُحَا » - فِي أَقَاصِيصِهِ - لَيْسَتْ مِنْ بَنَاتِ الْخَيَالِ .
إِلَيْكَ بَعْضُ مَا تَضَمَّنَهُ ذَلِكَ الْمَخْطُوطُ الْجُحْوِيُّ مِنْ حِكَايَاتٍ .
« كَامِلُ كِيلَانِي »

(الْحِكَايَةُ الْأُولَى) بِرِزْمِيلِ الْعَسَلِ

١ - هَدِيَّةُ الْوَالِي الْجَدِيدِ

وَلَدَى الْعَزِيزِ : « جَحْوَان » ..

إِبْنَتِي الْعَزِيزَةِ : « جُحَيَّة » ..

اسْتَمِعَا إِلَى أَبِيكُمَا : « جُحَا » : « أَبِي الْغُصْنِ دُجَيْنِ بْنِ ثَابِتٍ » .
مُنْذُ عَهْدٍ غَيْرِ بَعِيدٍ ، تَوَلَّى أَمْرَنَا ، فِي بَلَدِنَا ، وَالِ جَدِيدٌ .
تَسَامَعْنَا نَحْنُ - أَهْلُ الْبُقْعَةِ - بِأَنَّ ذَلِكَ الْوَالِيَّ يُحِبُّ الْعَسَلَ .
تَرَامَى إِلَيْنَا هَذَا النَّبَأُ ، مِمَّنْ حَوْلَهُ ، مِنْ رِجَالِ حَاشِيَّتِهِ .
إِنَّهُ يُفَضِّلُ الْعَسَلَ عَلَى مَا عَدَاهُ ، مِنْ مُخْتَلِفِ أَصْنَافِ الْحَلَوِيَّاتِ .
اتَّفَقْنَا عَلَى أَنْ نَعِدَّ هَدِيَّةً ، نُعَبِّرُ بِهَا عَنْ حَفَاوَتِنَا بِهِ .
اجْتَمَعَ رَأَيْنَا عَلَى أَنْ نُقَدِّمَ إِلَيْهِ بِرِزْمِيلاً ، نَمْلُؤُهُ بِالْعَسَلِ .
اعْتَزَمْنَا أَنْ نَشْتَرِكَ جَمِيعًا فِي إِعْدَادِ هَذِهِ الْهَدِيَّةِ ، بِالسَّوِيَّةِ .
كُلٌّ مِنَّا يُسْهِمُ - مِنْ عِنْدِهِ - بِقَدَرٍ مِنَ الْعَسَلِ الْمَطْلُوبِ .
حَرَضْنَا عَلَى أَنْ يَكُونَ النَّصِيبُ غَيْرَ مُزْهِقٍ لِمَنْ يُؤَدِّيهِ .
اتَّفَقْنَا - فِيمَا بَيْنَنَا - عَلَى أَنَّ الْقَدْرَ الْمَطْلُوبَ : مِلْءُ كُوبٍ .
بَدَأْنَا عَمَلَنَا - جَمِيعًا - بِأَنْ أَشْتَرَكْنَا فِي شِرَاءِ بِرِزْمِيلٍ كَبِيرٍ .
قَدَّرْنَا أَنَّ هَذَا الْبِرِزْمِيلَ يَتَّسِعُ لِمَا نَضْبُهُ فِيهِ مِنَ الْأَكْوَابِ .



إِطْمَأَنَّتْ نُفُوسٌ جَمَاعَتِنَا بِأَنَّ هَذِهِ الْفِكْرَةَ شَرِكَةٌ بَيْنَ الْجَمِيعِ .
لَوْ أَنَّهَا أَقْتَصَرَتْ عَلَى وَاحِدٍ بَعَيْنِهِ ، لَأَثَارَتْ غَضَبَ الْآخَرِينَ .
الِإِشْتِرَاكَ فِي تَنْفِيدِهَا يُتِيحُ لِجَمِيعِ الشُّرَكَاءِ رِضَا الْوَالِي الْجَدِيدِ .

٢ - خَوَاطِرُ السُّوءِ

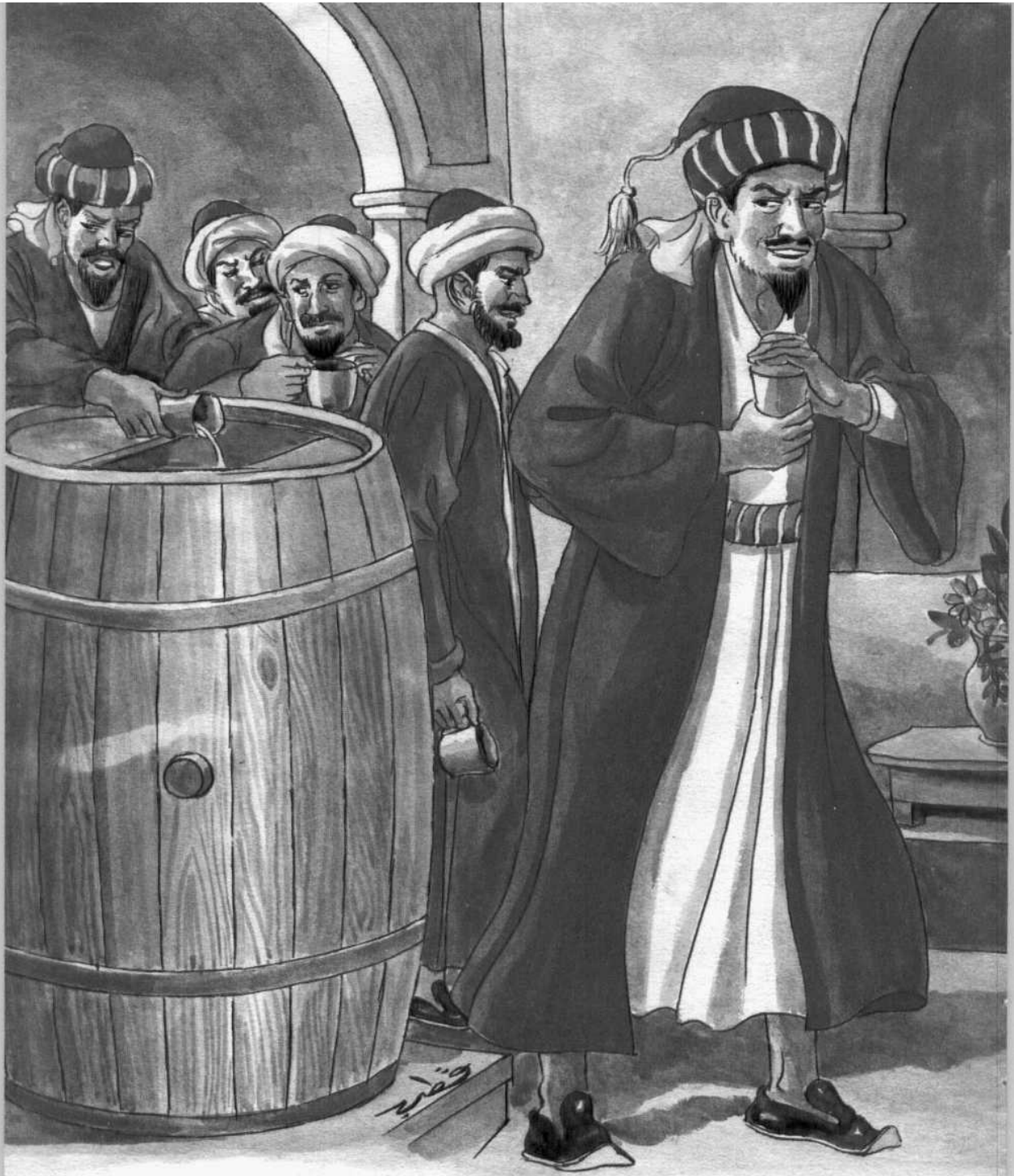
بَعْدَ إِعْدَادِ الْبِرِّمِيلِ ، أَشْتَرَكْنَا فِي حَمْلِهِ إِلَى سَاحَةِ الْوَالِي .
إِنْصَرَفَ كُلُّ مِنَّا ، لِيُخْضِرَ كُوبَ الْعَسَلِ ، وَيَصُبَّهُ فِي الْبِرِّمِيلِ .
لَسْتُ أَدْرِي : كَيْفَ دَارَتْ فِي رَأْسِي خَوَاطِرُ غَيْرِ طَيِّبَةٍ ؟ !
لَقَدْ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي أَنْ أَهْرُبَ مِنْ أَدَاءِ مَا يَجِبُ عَلَيَّ ! ..
الْعَجِيبُ أَنْ يَمُرَّ ذَلِكَ بِخَاطِرِي ، وَالْمَطْلُوبُ شَيْءٌ غَيْرُ عَسِيرٍ !
كَيْفَ أُتِيحَ لِي مُطَاوَعَةُ نَفْسِي ، وَقَتْلُهَا ، وَالنَّفْسُ أَمَارَةٌ بِالسُّوءِ ؟ !
خَطَأً مَا أَجَسَّمَهُ ، وَذَنْبٌ مَا أَعْظَمَهُ ! سَتَبَقَى ذِكْرَاهُ ، لَا أَنْسَاهُ ! ..
نَظَرْتُ إِلَى زِيرِ الْمَاءِ فِي بَيْتِي ، فَسَاوَرْتَنِي تِلْكَ الْخَوَاطِرُ :
قُلْتُ : « لَيْسَ عِنْدِي عَسَلٌ ، فَلِمَ أَذَا أَسْعَى لِشِرَائِهِ مِنَ الشُّوقِ ؟ !
مَاذَا يَضِيرُ ، لَوْ أَنَّ بِرِّمِيلَ الْعَسَلِ نَقَصَ مِقْدَارَ كُوبٍ ؟ ! ..
إِنَّ عَسَلَ الْبِرِّمِيلِ لَنْ يَتَأَثَّرَ ، إِذَا اخْتَلَطَ بِكُوبِ مَاءٍ ! ..
حَسْبِيَ أَنَّ شُرَكَائِي سَوْفَ يُؤَدِّي كُلُّ مِنْهُمْ نَصِيبَهُ بِالتَّامِّ ! ..
لَنْ يَشْعُرَ كَائِنٌ كَانَ ، بِأَنِّي قَصَّرْتُ فِي أَدَاءِ وَاجِبِي ! »
حَاوَلْتُ أَنْ أَطْرُدَ خَوَاطِرَ السُّوءِ مِنْ رَأْسِي ، فَلَمْ تَتَزَحْزَحْ ! ..
هَكَذَا خَدَعْتَنِي نَفْسِي ؛ فَجَعَلْتُ أَنْسَاقُ وَرَاءَهَا ، دُونَ وَعْيِي !



إتَّجَهْتُ إِلَى الزَّيْرِ فِي بَيْتِي، فَمَلَأْتُ الْكُوبَ مِنْ مَائِهِ الصَّافِي.
رَشَفْتُ الْمَاءَ مِنَ الْكُوبِ، فَشَعَرْتُ بِمَالِهِ مِنْ عَذُوبَةٍ وَحَلَاوَةٍ.
مَلَأْتُ الْكُوبَ ثَانِيَةً، لَكِنِّي يَكُونُ نَصِييِي فِي بِرْزَمِيلِ الْعَسَلِ.

٣ - كُوبُ الْمَاءِ

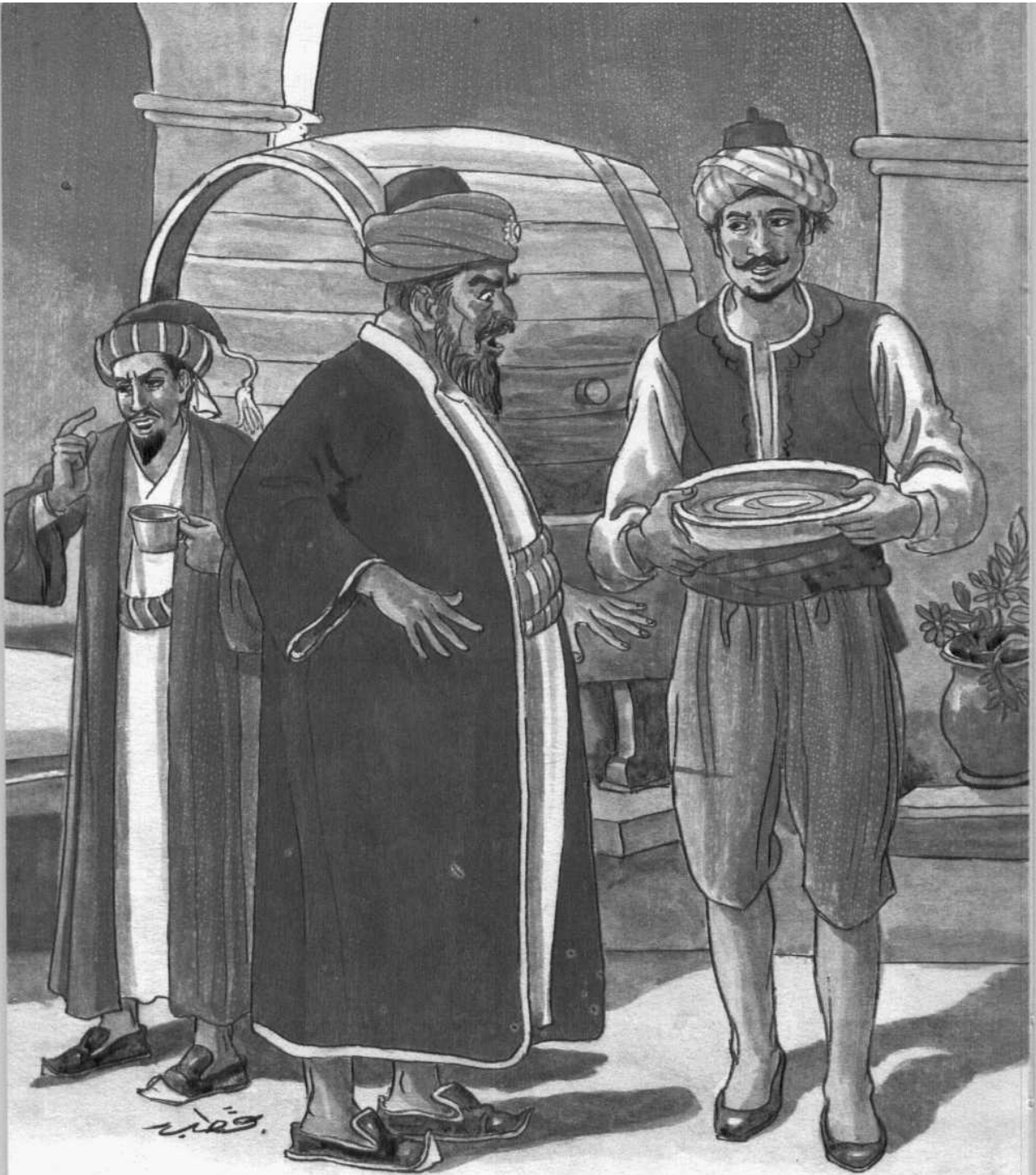
أَخَذْتُ طَرِيقِي إِلَى بَيْتِ الْوَالِي ، وَأَنَا أَحْمِلُ كُوبَ الْمَاءِ .
لَمْ يَفْتِنِي إِلَّا أَتْرَكَ ذَلِكَ الْكُوبَ مَكْشُوفًا ، فَسَتَرْتُهُ عَنِ الْعُيُونِ .
لَعِبْتُ بِرَأْسِي ، وَأَنَا أَخْطُو عَلَى جَانِبِ الطَّرِيقِ ، أَفْكَارٌ مُتَضَارِبَةٌ .
سَاءَ لَتَنِي نَفْسِي : « مَاذَا عَلَيْكَ ، لَوْ فَعَلْتَ كَمَا سَيَفْعَلُ غَيْرُكَ ؟ !
مَنْ كَانَ عِنْدَهُ عَسَلٌ ، سَيُقَدِّمُ مِمَّا عِنْدَهُ ، عَنْ طِيبِ خَاطِرٍ .
مَنْ لَمْ يَجِدْهُ ، سَيَسْعَى إِلَى شِرَاءِ نَصِيبِهِ ، بِثَمَنِ قَلِيلٍ .
لِمَاذَا تَشِدُّ أَنْتَ عَنْ سَائِرٍ مَنْ يَسْعَوْنَ بِأَكْوَابِ الْعَسَلِ ؟ !
لَقَدْ قَصَّرْتَ فِي آدَاءِ أَمْرِ يَسِيرٍ ، لَا يَسْتَحِقُّ مِنْكَ التَّقْصِيرُ !
إِهْدَاءُ الْعَسَلِ إِلَى الْوَالِي : تَطَوُّعٌ ، لَمْ يُجْبِرْكَ عَلَيْهِ جَابِرٌ ! »
قُلْتُ لِنَفْسِي : « مَا أَظُنُّ أَنِّي أَتَيْتُ أَمْرًا يَسْتَحِقُّ النَّدَمَ ! ..
أَيُّ الشَّيْئَيْنِ قِيمَتُهُ أَهَمُّ وَأَنْفَعُ لِلنَّاسِ : الْعَسَلُ ، أَمْ الْمَاءُ ؟ !
الْعَسَلُ غِذَاءٌ فِيهِ شِفَاءٌ ، وَلَكِنَّ قِوَامَ الْحَيَاةِ هُوَ الْمَاءُ ! ..
قَدْ نَسْتَعْنِي عَنِ الْعَسَلِ بغيرِهِ ، وَلَيْسَ لَنَا عَنِ الْمَاءِ غِنَاءٌ ! »
وَاصَلْتُ خُطَايَ إِلَى بَيْتِ الْوَالِي ، وَأَنَا فِي تَرْقُبٍ وَحَذَرٍ ..
مَا بَالِي : أَتَوَهَّمُ أَنَّ الْعُيُونَ - مِنْ حَوْلِي - تَكَادُ تَكْشِفُ حَالِي ؟ !



وَقَفْتُ أَمَامَ الْبِرْمِيلِ ، وَأَنَا مُخْتَاطٌ فِي وَقُوفِي أَشَدَّ الْإِخْتِيَاظِ .
كَشَفْتُ السُّتْرَ الَّذِي كَانَ عَلَى الْكُوبِ ، فِي مُحَاذَرَةٍ وَاسْتِخْفَاءٍ .
صَبَبْتُ فِي بِرْمِيلِ الْعَسَلِ ، كُلَّ مَا فِي الْكُوبِ مِنْ مَاءٍ .

٤ - يَوْمُ الْمَهْرَجَانِ

أَقَامَ الْوَالِي الْجَدِيدُ مَهْرَجَانًا كَبِيرًا يَخْتَفِلُ فِيهِ ، بِيَوْمِ تَوَلَّيْهِ .
لَمَّا عَلِمَ بِهَدِيَّةِ بَرْمِيلِ الْعَسَلِ ، أُعْجِبَ بِهَا كُلُّ الْأَعْجَابِ .
أَمَرَ بِأَنْ يُقَدَّمَ إِلَيْهِ ذَلِكَ الْبَرْمِيلُ ، لِيَفْتَتَحَ بِهِ يَوْمَ الْمَهْرَجَانِ .
انْتَظَرْنَا - نَحْنُ مُقَدِّمِي الْهَدِيَّةِ - تَرْحِيبَ الْوَالِي بِنَا ، وَثَنَاءَهُ عَلَيْنَا .
مَا أَعْجَبَهَا مِنْ مُفَاجَأَةٍ : تَجَلَّى لِلْعِيَانِ ، مَا لَيْسَ فِي الْحِسْبَانِ !
كَانَ ضَلَالًا مَا أَنْتَظَرْنَا ! .. لَقَدْ بَدَأَ أَمَامَنَا عَكْسُ مَا أَمَلْنَا !
فَتَحَّ أَحَدُ أَتْبَاعِ الْوَالِي بَرْمِيلَ الْعَسَلِ ، فِي تَهْلِيلٍ وَاسْتِبْشَارٍ .
مَلَأَ وَعَاءً مِنَ الْبَرْمِيلِ ، فَلَمَّا رَأَاهُ أَشْتَدَّ بِهِ الْإِنْكَارُ :
لَمْ يَشْهَدْ فِي الْوِعَاءِ عَسَلًا ، بَلْ مَاءٌ ظَاهِرًا لِلْأَنْظَارِ :
إِنَّهُ لَمْ يَرَ - قَبْلَ الْيَوْمِ - عَسَلًا خَالِيَ اللَّوْنِ مِنَ الْإِخْمِرَارِ ! ..
لَمْ يَسْتَخْسِنْ أَنْ يُقَدِّمَهُ لِلْوَالِي ، وَلَكِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ خِيَارٌ !
عَجِبَ الْوَالِي ، حِينَ تَبَاطَأَ عَنْهُ التَّابِعُ ، فَصَاحَ بِهِ وَثَارَ .
كَثُرَ اللَّغَطُ بَيْنَ حَاضِرِي الْمَهْرَجَانِ ، يَتَسَاءَلُونَ : مَاذَا حَدَثَ الْآنَ ؟ !
تَنَاوَلَتِ الْأَلْسُنُ أَنْ بَرْمِيلَ الْعَسَلِ لَيْسَ فِيهِ إِلَّا الْمَاءُ !! ..
كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْحَاضِرِينَ كَانَ يَتَظَاهَرُ بِالْحَيْرَةِ ، وَيَتَصَنَّعُ الْإِسْتِنْكَارَ .



كُنْتُ أَشَدَّ الْحَاضِرِينَ دَهْشًا، لِظَنِّي الْخَائِبَ، وَتَقْدِيرِي غَيْرِ الصَّائِبِ !
 صَاحَ الْوَالِي بِنَا ، وَهُوَ يَرْمُقُ الْوَعَاءَ ، فِي سُخْطٍ وَاسْتِيَاءٍ :
 « أَلَيْسَ فِي إِهْدَائِي بِرَمِيلًا مِنَ الْمَاءِ ، كُلُّ مَعَانِي الْإِسْتِهْزَاءِ ؟ ! »

٥ - بِرْمِيلُ الْعَسَلِ الْمُزَيَّفِ

لَمْ أَكُنْ أَتَصَوَّرُ - بِحَالٍ - أَنْ يَحْدُثَ ذَلِكَ الَّذِي حَدَثَ ! ..
الْفِكْرَةُ الْخَاطِئَةُ الَّتِي سَاوَرْتَنِي ، لَمْ تَكُنْ وَقْفًا عَلَى وَحْدِي !
الْفِكْرَةُ الْحَمَقَاءُ الَّتِي أَغْرَتَنِي بِالْإِنْقِيَادِ لَهَا ، أَغْرَتْ سَائِرَ الشُّرَكَاءِ !
الَّذِينَ اتَّفَقُوا عَلَى تَقْدِيمِ الْهَدِيَّةِ ، لَمْ يَخْتَلِفْ بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ .
مِنَ الْمُؤَسِفِ : أَنَّهُمْ اتَّفَقُوا فِي تَنْفِيذِ شَيْءٍ ، لَمْ يَتَّفَقُوا عَلَيْهِ !
مِنَ السُّخْرِيَّةِ أَنْ نَجْتَمِعَ عَلَى تَقْدِيمِ الْمَاءِ ، بَدَلَ الْعَسَلِ !
كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْمُشْتَرِكِينَ ، أَتَّكَلَ - فِي التَّنْفِيذِ - عَلَى الْآخَرِينَ !
بِذَلِكَ أَنْعَكَسَ مَا أَرَدْنَاهُ ، مِنَ التَّقَرُّبِ إِلَى الْوَالِي ، بِمَا أَهْدَيْنَاهُ !
إِفْتَضَحَ أَمْرُنَا فِي سَاحَةِ الْمَهْرَجَانِ ، بِانْكِشَافِ مُحْتَوَى الْبِرْمِيلِ .
تَرَكْتُ الْهَدِيَّةَ الزَّائِفَةَ ، فِي نَفْسِ الْوَالِي الْجَدِيدِ ، أَسْوَأَ الْأَثَرِ !
أَصْبَحْتَ سِيرَتُهُ مَعَنَا ، كَمَا أَصْبَحْتَ سِيرَتُنَا مَعَهُ ، أَقْبَحَ السَّيْرِ !
إِنْتَهَتْ حَيَاةُ الْوَالِي ، وَحَيَاةُ كَثِيرٍ مِنْ مُعَاَصِرِينَا ، عَلَى مَرِّ الزَّمَانِ .
أَمَّا حِكَايَةُ الْبِرْمِيلِ الْمُزَيَّفِ ، فَظَلَّتْ حَدِيثًا لَا يَنَالُ مِنْهُ النَّسِيَانُ !
كَانَتْ فِي مُقَدِّمَةِ مَا يَتَنَاوَلُهُ الْجُلَسَاءُ مِنَ الْقَصَصِ وَالْأَسْمَارِ .
كَانَ السَّامِعُونَ لَهَا يَرَوْنَ - فِي طَيَّاتِهَا - مَثَلًا لِلْعِظَةِ وَالْإِعْتِبَارِ .

٦ - الْعَظَائِمُ وَالصَّغَائِرُ

شَدَّ مَا سَاءَنِي مَا أَقْدَمْتُ عَلَيْهِ فِي شَأْنِ بِرْمِيلِ الْعَسَلِ !..
إِسْتَصْغَرْتُ مَلَأَ كُوبِ الْعَسَلِ الْمَفْرُوضِ عَلَيَّ؛ فَتَهَاوَنْتُ وَمَلَأْتُهُ بِالْمَاءِ !
لَمَّا حَذَا حَذَوَى الشُّرَكَاءُ، أَصْبَحَ الْكُوبُ الضَّئِيلُ، مِلءَ بِرْمِيلِ !..
عَرَفْتُ أَنَّ الشَّيْءَ الْكَبِيرَ : إِنَّمَا يَتَجَمَّعُ مِنْ صِغَارِ الْأَشْيَاءِ .
هَذِهِ الْحَقِيقَةُ يَتَسَاوَى فِيهَا مَا حَسُنَ مِنَ الْأَشْيَاءِ وَمَا سَاءَ .
مِمَّ تَتَأَلَّفُ هَذِهِ الْبِحَارُ الرَّائِعَةُ، الَّتِي تُحِيطُ بِالْأَرْضِ الْوَاسِعَةِ ؟
إِنَّهَا مَجْمُوعَةٌ مِنْ قَطَرَاتِ الْمِيَاهِ الصُّغْرَى، وَاحِدَةٌ مَعَ أُخْرَى !
مَا هَذِهِ الْأَرْضُ الَّتِي نَعِيشُ عَلَيْهَا، مَبْسُوطَةٌ حَوْلَنَا، يَمْنَةً وَيَسْرَةً ؟
إِنَّهَا - فِي حَقِيقَتِهَا - لَيْسَتْ إِلَّا ثَرَابًا، مُتَجَمِّعًا مِنْ ذَرَّةٍ مَعَ ذَرَّةٍ !
الْعُصُورُ الَّتِي مَرَّتْ بِالنَّاسِ، فِي هَذِهِ الدُّنْيَا : كَيْفَ مَرَّتْ ؟
هِيَ ثَانِيَةٌ بَعْدَهَا ثَانِيَةٌ .. وَمَتَى بَلَغَتِ السِّتِّينَ أَصْبَحَتْ دَقِيقَةً .
الدَّقِيقَةُ تَتَلَوُّهَا دَقِيقَةٌ، حَتَّى يَكْتَمِلَ مِنْهَا سِتُّونَ، فَإِذَا هِيَ سَاعَةٌ .
مِنْ تَوَالِي السَّاعَاتِ يَتَأَلَّفُ الْيَوْمُ .. وَمِنْ الْأَيَّامِ يَتَأَلَّفُ الْأُسْبُوعُ .
الشَّهْرُ مِنَ الْأَسَابِيعِ .. وَالْعَامُ مِنَ الشُّهُورِ .. وَالْأَحْقَابُ مِنَ الْأَعْوَامِ !
كُلُّ مَا هُوَ عَظِيمٌ الْخَطَرِ، يَتَأَلَّفُ مِنْ أَشْيَاءٍ غَايَةٍ فِي الصَّغَرِ !

٧ - زَمَنُ الدَّرْسِ وَالتَّحْصِيلِ

النَّاشِئُ : أَمَامَهُ زَمَنٌ ، يَجِبُ أَنْ يَقْضِيَهُ ، فِي أَجْتِنَاءِ ثَمَرِهِ .
يَفِرُّ مِنْهُ ، يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ ، إِذَا تَهَاوَنَ بِهِ فِي صِغَرِهِ ! ..
أَمَّا إِذَا قَدَّرَهُ حَقَّ قَدْرِهِ ، كَفَلَ لَهُ النِّجَاحَ فِي كِبَرِهِ .
إِنَّهُ يَتَمَيَّزُ بِمَا يُحْصِلُهُ مِنْ عُلُومٍ نَافِعَةٍ ، وَخِبَرَاتٍ بَارِعَةٍ .
يَجِبُ أَلَّا تَنْخَدِعَ نَفْسُهُ بِالْوَقْتِ ، وَإِنْ بَدَأَ لَهُ فِي سَعَةٍ ! ..
الْوَقْتُ ذُو لَحَظَاتٍ قَصَارٍ ، كَمَا يَتَأَلَّفُ الْبَحْرُ مِنْ قَطَرَاتٍ صِغَارٍ .
كَمْ مِنْ نَاشِئٍ انْخَدَعَ بِطُولِ الْوَقْتِ ، فَضَاعَ مِنْ يَدِهِ !
كَمْ مِنْ دَارِسٍ كَانَ فِي غَفْلَتِهِ ، يُؤَجِّلُ دَرَسَ الْيَوْمِ لِغَدِهِ ! ..
لَا شَكَّ أَنَّ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ سَيَشْعُرُ بِالْأَلَمِ الْإِنْكَسَارِ ! ..
إِنَّهُ سَيَجِدُ غَيْرَهُ ، مِمَّنْ أَحْسَنَ الْغَرْسَ ، فِي فَرْحٍ وَاسْتِبْشَارٍ .
سَيَنْظُرُ إِلَيْهِ ، فِي تَحَسُّرٍ شَدِيدٍ ، وَهُوَ يَجْنِي أَحْسَنَ الثَّمَارِ .
مَاذَا يُجَدِّدُهُ فِي يَوْمِهِ الْأَلَمِ ، وَامْتِلَاءِ نَفْسِهِ بِغَايَةِ النَّدَمِ ؟ !
لَقَدْ ضَاعَ مِنْهُ الْوَقْتُ الْجَلِيلُ ، وَلَيْسَ لِلضَّائِعِ مِنْ بَدِيلٍ !
الذِّكْرُ النَّابِهُ : مَنْ يَعْرِفُ أَنَّ الزَّمَانَ أَثْمَنُ شَيْءٍ فِي الْوُجُودِ ! ..
إِنَّ هَذَا الزَّمَانَ الْمُتَاحَ لِلْمَرْءِ ، إِذَا مَضَى : لَا يَعُودُ ! ..

٨ - عِظَةٌ وَعِبْرَةٌ

مَا أَكْثَرَ مَا تَخْوِي قِصَّتِي - مَعَ بِرْمِيلِ الْعَسَلِ - مِنْ أَلْوَانِ الْإِعْتِبَارِ !
لَقَدْ أُمْتَلَأَ الْبِرْمِيلُ - عَلَى سَعَتِهِ - بِمَا حَوَتْهُ الْأَكْوَابُ الصَّغَارُ .
كَذَلِكَ : جُودُ النَّاسِ بِقَلِيلِ الْمَالِ ، يَحْمِي مِنَ الْإِحْتِيَاجِ وَالْإِعْسَارِ .
لَا يَفُوتُنِي أَنْ أُنَبِّهَ إِلَى أَنِّي صَارَخْتُ نَفْسِي بِخَطِيئِي فِيمَا أَقْدَمْتُ عَلَيْهِ .
لَمْ أَسْأَلْكَ مِنْهُجَ بَعْضِ الْأَبَاءِ ، حِينَ يَتَنَزَّهُونَ عَنِ الْأَخْطَاءِ ! ..
إِعْتَرَفْتُ بِمَا لَمْ أَسْلَمْ مِنْهُ ، لِأُفِيدَ غَيْرِي بِهَذَا الْإِعْتِرَافِ .
أَرَدْتُ أَنْ يَكُونَ فِيهِ ، لِسَامِعِيهِ ، تَنْوِيرٌ وَتَبْصِرَةٌ ، وَعِبْرَةٌ وَتَذَكُّرَةٌ .
حَمَانِي شُعُورِي بِالْخَطَا السَّابِقِ ، مِنْ وَقُوعِ مِثْلِهِ فِي اللَّاحِقِ .
كَانَ مَا أَرْتَكِبْتُهُ - فِيمَا مَضَى - دَرْسًا لَا أَنْسَاهُ ، طُولَ الْحَيَاةِ !
يَجِبُ أَلَّا يَسْتَحِيَ الْأَبَاءُ ، مِنْ عَرْضِ تَجَارِبِهِمْ عَلَى الْأَبْنَاءِ .
أَصْدَقُ مَا يُؤَثِّرُ فِي نُفُوسِ الْأَبْنَاءِ ، مَا يَحْكِيهِ عَنْ أَنْفُسِهِمُ الْأَبَاءُ !
السُّلُوكُ الْقَرِيمُ لَا يَتَيَسَّرُ تَحْقِيقُهُ لِلنَّاشِئِينَ ، بِمُجَرَّدِ أَقْوَالِ النَّاصِحِينَ !
التَّجْرِبَةُ الْخَاطِئَةُ تُؤَثِّرُ - بِقِصَّتِهَا - أَبْلَغَ التَّأْثِيرِ فِي نُفُوسِ السَّامِعِينَ !
بِعَرْضِ مَا فِي الْخَطَا مِنْ سُوءِ الْعِقَابِ ، يَتَجَلَّى حُسْنُ الصَّوَابِ !
أَلْمُهُمْ - فِي عَرْضِ التَّجَارِبِ - مَا لِأَسْلُوبِهَا مِنْ تَشْوِيقٍ وَاجْتِدَابٍ .

(الْحِكَايَةُ الثَّانِيَّةُ) لَبَنُ الْبَقَرَةِ
١ - بَيَّاعَةُ اللَّبَنِ

وَلَدَى الْعَزِيزِ : « جَحْوَان » ..

إِبْنَتِي الْعَزِيزَةِ : « جُحَيَّة » ..

مُنْذُ لَيَالٍ ، ضَمَّنِي مَجْلِسُ حَافِلٍ بِصَفْوَةٍ مِنَ الْإِخْوَانِ الْكِرَامِ .
تَنَاوَلْنَا ، فِي سَهْرَتِنَا ، أَشْتَاتًا مِنَ الْقِصَصِ ، وَالْوَنَاءِ مِنَ الْكَلَامِ .
كَانَ - فِيمَا تَنَاوَلْنَاهُ - حِكَايَةُ « بِزْمِيلِ الْعَسَلِ » ، أَوْ « بِزْمِيلِ الْمَاءِ » .
لِغَرَابَةِ تِلْكَ الْحِكَايَةِ ، لَمْ تَخُلْ مِنْهَا ذَاكِرَةٌ جَمَعَ الْأَصْدِقَاءُ .
بَقِيَتْ مَنْقُوشَةً فِي الْأَفْهَامِ ، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ تَعَاقُبِ الْأَعْوَامِ .
أَثَارُ هَذِهِ الْحِكَايَةِ ، فِي مَجْلِسِنَا ، صَدِيقُنَا الْكَرِيمُ « أَبُو أُسَامَةَ » .
مُنَاسَبَةً إِثَارَتِهِ لَهَا : أَنَّهَا ذَاتُ شَبِّهِ بِمَا فِي حَاضِرِ الْأَيَّامِ ! ..
لِذَلِكَ خَطَرْتُ بِبَالِهِ الْحِكَايَةَ الَّتِي عَمَّتِ الْبِقَاعَ ، وَمَلَأَتْ الْأَسْمَاعَ .
الْحِكَايَةُ الشَّبِيهَةُ بِحِكَايَةِ « بِزْمِيلِ الْعَسَلِ » ، هِيَ : حِكَايَةُ « لَبَنِ الْبَقَرَةِ » .
قَالَ « أَبُو أُسَامَةَ » : « فِي ضَاحِيَةِ مَدِينَتِنَا ، عَاشَتْ أَمْرَأَةٌ عَجُوزٌ .
كَانَ مُقَامُهَا فِي كُوخٍ صَغِيرٍ ، عَلَى مَقَرَبَةٍ مِنْ سَفْحِ الْجَبَلِ .
أَقَامَتْ هَذِهِ الْمَرْأَةُ الْعَجُوزُ ، تَتَقَوَّطُ بِمَا تُدِرُّهُ بِقَرَّتُهَا الْحُلُوبُ :
تَبِيعُ اللَّبَنَ كُلَّ صَبَاحٍ ، وَتَشْتَرِي بِثَمَنِهِ مَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ ..



صَرَفَتِ الْمَرْأَةُ كُلَّ عِنَايَتِهَا إِلَى نَظَافَةِ الْبَقَرَةِ، وَصَفَاءِ اللَّبَنِ .
إِنْ فَرَطْتَ فِي ذَلِكَ ، قَلَّ الْمُقْبِلُونَ عَلَى الشَّرَاءِ مِنْهَا .
خَشِيتُ ، كُلَّ الْخَشْيَةِ ، أَنْ يَكُونَ مَصِيرُ اللَّبَنِ هُوَ الْبَوَارَ .

٢ - فِكْرَةٌ سَيِّئَةٌ

ذاتَ يَوْمٍ ، زَيْنَ الشَّيْطَانُ لِلْمَرْأَةِ فِكْرَةً مِنْ أَفْكَارِ السُّوءِ .
قَالَتْ : « كَسْبِي - مِنْ بَيْعِ لَبَنِ الْبَقَرَةِ - لَا يَكَادُ يَفِي بِالْحَاجَةِ :
إِنِّي ، مُنْذُ زَمَنٍ بَعِيدٍ ، لَمْ أَذْخِرْ شَيْئًا مِنْ كَسْبِي ! ..
مَاذَا أَصْنَعُ ، إِذَا قَلَّ لَبَنُ الْبَقَرَةِ ، أَوْ أَصَابَهَا مَكْرُوهٌ ؟ !
يَجِبُ عَلَيَّ أَنْ أَزِيدَ الدَّخْلَ ، لِأَذْخِرَ مِنْهُ مَا يُؤَمِّنُ الْمُسْتَقْبَلَ .
مَا الْحِيلَةُ ؟ .. لَيْسَ أَمَامِي إِلَّا مَزْجُ اللَّبَنِ بِقَدْرِ مِنَ الْمَاءِ !
بِهَذَا يَزْدَادُ مَا أَكْسَبُهُ مِنْ بَيْعِ اللَّبَنِ زِيَادَةٌ مَلْحُوظَةٌ !
سَأَحْرِصُ - مَا وَسَعَنِي - عَلَى أَنْ أَمْزِجَ اللَّبَنَ بِمَاءٍ مُصَفًّى .
إِنِّي أَخْشَى فَسَادَ اللَّبَنِ ، إِذَا خَالَطَتْهُ شَوَائِبُ مَاءٍ عَكِرٍ .
لَنْ يَفْطِنَ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ مِنِّي اللَّبَنَ إِلَى هَذِهِ الْحِيلَةِ .
إِنَّ كُلًّا مِنْهُمْ سَيَكُونُ نَصِيبُهُ مِنَ الْمَاءِ جُمْلَةً قَطَرَاتٍ .
إِنْ ثِقَةَ الْمُشْتَرِينَ بِي ، سَتَمْنَعُهُمْ مِنَ الشَّكِّ فِي أَمْرِي .
لَوْ لَاحَظُوا رِقَّةَ اللَّبَنِ ، لَنَسَبُوا ذَلِكَ إِلَى ضَعْفِ الْبَقَرَةِ .
لَوْ أَرْتَابَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ فِي تَصَرُّفِي ، لَمَا وَجَدَ مَنْ يُنَاصِرُهُ ! ..
سَأَحْفَظُ زِيَادَةَ الْكَسْبِ ، دُونَ تَفْرِيطٍ فِيهَا بِالسَّعَةِ فِي الْإِنْفَاقِ . »

٣ - حوارُ الجُلَساءِ

قَطَعَ الْجُلَسَاءُ حَدِيثَ « أَبِي أُسَامَةَ » ، لِتَغْقِيبِ عَلَى مَا دَارَ .
قَالَ أَحَدُهُمْ : « وَسُوسَ الشَّيْطَانُ لِصَاحِبَةِ الْبَقْرَةِ أَنْ تَرْتَكِبَ الْخَطَأَ !
قَدَّرْتُ أَنْ بَضَعَ قَطْرَاتٍ مِنَ الْمَاءِ ، لِكُلِّ مُشْتَرٍ ، لَا تَنْكَشِفُ :
كَمَا قَدَّرَ كُلُّ مَنْ شُرَكَاءِ الْبِرْمِيلِ ، أَنَّ نَقْصَ كُوبِهِ لَا يَفْتَضِحُ ! »
قَالَ آخَرُ : « ظَهَرَتِ النَّتِيجَةُ لِلشُّرَكَاءِ ، فَإِذَا الْبِرْمِيلُ كُلُّهُ مَاءٌ ! »
قَالَ ثَالِثٌ : « شَتَّانَ بَيْنَ كِلْتَا النَّتِيجَتَيْنِ ، فِي هَاتَيْنِ الْحَالَتَيْنِ :
خِدَاعُنَا نَحْنُ ذَاكَ سِرُّهُ ، وَخِدَاعُ الْمَرْأَةِ الْعَجُوزِ اسْتَتَرَ أَمْرَهُ ! »
قَالَ رَابِعٌ : « مَاذَا يُغْنِيهَا أَنَّ صَنِيعَهَا اسْتَخْفَى عَنِ النَّاسِ ؟ !
عَلِمَهُ مَنْ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ !
مَاذَا يَنْفَعُهَا مَا تَعْتَذِرُ بِهِ عَنْ قِيَامِهَا بِغَشِّ الْأَقْوَامِ ؟ !
هَيْهَاتَ أَنْ تَكُونَ لَهَا بَرَكَتٌ فِيمَا أَدْخَرْتَهُ مِنْ مَالٍ حَرَامٍ !
هَيْهَاتَ أَنْ تُتَاحَ لَهَا فُرْصَةٌ لِلنَّجَاةِ مِنَ الْعُقُوبَةِ وَالْإِنْتِقَامِ !
لَوْ أَقْتَصَدَتْ مِنْ مَالِهَا الْحَلَالِ ، لَمَا وَقَعَتْ فِي الْأَثَامِ . »
قُلْتُ : « عُذْرًا - « أَبَا أُسَامَةَ » - إِذْ شَغَلْنَا عَنْ حَدِيثِكَ الْحِوَارُ .
نَحْنُ إِلَى سَمَاعِ بَقِيَّةِ قِصَّتِكَ الْمُعْجِبَةِ الشَّائِقَةِ ، فِي الْإِنْتِظَارِ . »

٤ - جَزَاءُ الْغِشِّ

إِسْتَأْنَفَ «أَبُو أُسَامَةَ» حَدِيثَهُ عَنِ الْمَرْأَةِ الْعَجُوزِ، بَيَّاعَةِ اللَّبَنِ .
قَالَ : «بَعْدَ سَفَرٍ قَصِيرٍ ، رَجَعْتُ إِلَى بَيْتِي فِي جُنْحِ الظَّلَامِ .
مَا إِنْ رَأَيْتُ وَلَدِي «أُسَامَةَ» ، حَتَّى لَمَحْتُهُ فِي أَغْتِمَامِ .
رَبَّتُ كَتِفَهُ ، أَطْيَبُ خَاطِرُهُ ، وَقُلْتُ : «مَاذَا بِكَ ، يَا غُلَامُ ؟»
قَالَ لِي : «لَمْ تَدْرِ مَا حَدَثَ ، فِي بُقْعَتِنَا ، مُنْذُ أَيَّامٍ ؟ ! ..
الْكُوخُ الَّذِي أَقِيمَ هُنَاكَ فِي سَفْحِ الْجَبَلِ ، جَرَفَهُ السَّيْلُ !
لَمْ يَسْلَمْ مِنَ الْغَرَقِ : الْكُوخُ ، وَلَا صَاحِبَتُهُ ، وَلَا الْبَقَرَةُ الْحَلُوبُ !
تَأَلَّمْتُ لِمَا حَدَثَ ، وَإِنْ كَانَ لَا يَمَسُّنَا - نَحْنُ - مِنْهُ أَدَى .
لَقَدْ أَمْتَنَعْنَا ، مُنْذُ زَمَنٍ ، عَنْ شِرَاءِ اللَّبَنِ مِنْ صَاحِبَةِ الْكُوخِ ! .»
قُلْتُ : «سَبَبُ الْإِمْتِنَاعِ : مُلَاحَظَتِي أَنَّ اللَّبَنَ رَقِيقٌ ، غَيْرُ خَالِصٍ .»
قَالَ : «أَتَخَسَّبُ أَنَّ الْمَرْأَةَ كَانَتْ تَغُشُّ اللَّبَنَ ، فَتَمَزُجُهُ بِالْمَاءِ ؟»
قُلْتُ : «رُبَّمَا كَانَتْ تَفْعَلُ ذَلِكَ ، وَلَكِنِّي لَمْ أَتَحَقَّقْ مِنْهُ .»
سَمِعْتُ ، مِنْ بَعْضِ جِيرَانِي الَّذِينَ يَشْتَرُونَ اللَّبَنَ ، أَنَّهُ مَغْشُوشٌ .
لَمْ أَرُدِّدْ مَا سَمِعْتُهُ ، خَشْيَةً أَنْ يَكُونَ غَيْرَ صَحِيحٍ .
اِكْتَفَيْتُ بِالْكَفِّ عَنْ شِرَاءِ اللَّبَنِ ، مِنْ بَابِ التَّحَرُّزِ وَالِاخْتِيَاظِ .»

قَالَ « أُسَامَةُ » : « فَتَحَتْ أُمَامِي بَابَ تَفْكِيرٍ ، لَمْ يَخْطُرْ لِي بِبَالٍ .
 خَلَطُ اللَّبَنِ بِالمَاءِ ، هُوَ سِرٌّ مَا أَصَابَ الْمَرْأَةَ مِنْ بَلَاءٍ ! ..
 مُزِجَ اللَّبَنِ بِقَطَرَاتِ المَاءِ ، فَتَأَلَّفَ مِنْهَا سَيْلُ مَاءِ السَّمَاءِ .
 اشْتَدَّ أَهْتِمَامِي ، بِمَا أَشَارَ إِلَيْهِ ، فِي ذَلِكَ الشَّانِ ، غُلَامِي .
 قُلْتُ : « أَحْسَبُكَ ، بِمَا أَشَرْتَ إِلَيْهِ ، كَشَفْتَ عَنْ سِرِّ خَطِيرٍ .
 زِدْنِي ، فِي حَقِيقَةِ السَّيْلِ ، إِفْصَاحًا عَمَّا هَذَاكَ إِلَيْهَا التَّفْكِيرُ .
 قَالَ : « أَلَلَّهُ يُزْسِلُ المَاءَ مِنَ السَّمَاءِ ، لِيَمْنَحَ الْحَيَاةَ لِلْأَشْيَاءِ .
 لِمَاذَا نَزَلَ هَذَا السَّيْلُ ؟ ! .. لِيَكُونَ - مِنْ نَتِيجَتِهِ - الشَّرُّ وَالْإِيذَاءُ !
 لَقَدْ نَزَلَ لِيَصِيرَ أَدَاةَ عِقَابٍ ، لِمَنْ كَسَبَهُ مَالٌ حَرَامٌ ! ..
 تَجَمَّعَتْ قَطَرَاتُ مَاءِ الْغَيْشِ ، عَلَى تَعَاقُبِ الْأَيَّامِ ، وَالشُّهُورِ وَالْأَعْوَامِ :
 أَصْبَحَتْ هَذِهِ الْقَطَرَاتُ سَيْلًا جَارِفًا مُغْرِقًا ، يَتِمُّ بِهِ الْإِنْتِقَامُ !
 أُعْجِبْتُ بِذِكَاةٍ وَلَدِي « أُسَامَةُ » فِي فَهْمِهِ لِلْحَقَائِقِ ، وَتَمَحِّيصِهِ لِلْأُمُورِ .
 إِطْمَأْنَنْتُ نَفْسِي بِأَنَّ لِلْفَضَائِلِ ، فِي تَقْدِيرِهِ ، أَحْتِرَامًا أَيْ أَحْتِرَامًا !
 سَكَتَ مُحَدِّثُنَا « أَبُو أُسَامَةَ » هُنَيْهَةً ، ثُمَّ اسْتَأْنَفَ يُعَقِّبُ بِقَوْلِهِ :
 « تَذَكَّرْتُ غَيْشَ « بِزَمِيلِ الْعَسَلِ » ، وَمَا جَرَّهُ مِنْ أَذَى كَبِيرٍ !
 وَثِقْتُ بِأَنَّ مِنْ صَغَائِرِ الْأُمُورِ ، مَا يُعَقِّبُ كَبَائِرَ الشُّرُورِ ! »

صِغَارُ الْأَشْيَاءِ فِي حِكْمَةِ الشَّرْقِ وَالْغَرْبِ

١ - مَغْزَى الْحِكَايَتَيْنِ الْجُحَوِّيَّتَيْنِ

وَلَدَى رِشَادُ :

أَلْقَيْتُ عَلَى سَمْعِكَ حِكَايَتَيْنِ أَثْنَتَيْنِ ، مِنْ التَّرَاثِ الْجُحَوِيِّ .
كُلٌّ مِنَ الْحِكَايَتَيْنِ مُسْتَقِلَّةٌ بِنَفْسِهَا ، ذَاتُ أَحْدَاثٍ خَاصَّةٍ بِهَا .
كِلْتَا الْحِكَايَتَيْنِ الْمُسْتَقِلَّتَيْنِ تَشْتَرِكُ فِي الْمَقْصُودِ بِهَا ، وَالْهَدَفِ مِنْهَا :
الْأُولَى : عَرَفْتُكَ بِأَنَّ الْبِرِّمِيلَ الْكَبِيرَ أَمْتَلَأَ مِنَ الْأَكْوَابِ الصُّغَارِ .
كَانَتْ نَتِيجَتُهُ : مَا لِحَقَّ الْكُؤُخَ وَصَاحِبَتَهُ وَبَقَرَتَهَا مِنَ الدَّمَارِ !
وَضَحَتْ لَكَ مِنْ خِلَالِ الْحِكَايَتَيْنِ فِكْرَةٌ مَاجِدَةٌ ، وَحِكْمَةٌ خَالِدَةٌ .
الْقَلِيلُ إِلَى الْقَلِيلِ : كَثِيرٌ .. وَمُعْظَمُ النَّارِ : مِنْ شَرِّ صَغِيرٍ !
الْحَجَرُ فَوْقَ الْحَجَرِ : تَعْمِيرٌ .. وَإِسْقَاطُ حَجَرٍ بَعْدَ حَجَرٍ : تَذْمِيرٌ ! ..
هَذِهِ الْحَقِيقَةُ الْفَرِيدَةُ ، لَيْسَتْ فِي ذَلِكَ الْقِصَصِ الْجُحَوِيِّ : وَلِيدَةٌ !
إِنَّهَا - فِي الشَّرْقِ وَالْغَرْبِ - ثَمَرَةٌ لِلْخِبَرَاتِ الْعَدِيدَةِ ، وَالتَّجَارِبِ الْمُفِيدَةِ .
أَسْوَاقُ إِلَيْكَ مَثَلًا مِنَ التَّغْيِيرِ عَنْهَا ، أَمْلَأُ حَكِيمٌ عَرَبِيٌّ .
كَمَا أَسْوَاقُ مَثَلًا يُفْصِحُ عَنْ ذَلِكَ ، صَاغَهُ شَاعِرٌ غَرِبِيٌّ :

٢ - حِكْمَةُ الشَّرْقِ

مُنْذُ أَلْفِ عَامٍ هَجَرِيٍّ ، عَاشَ الْحَكِيمُ الْعَرَبِيُّ : « أَبُو الْعَلَاءِ الْمَعَرِّيُّ » .
تَرَكَ - بِشَعْرِهِ وَنَثَرِهِ - ذَخِيرَةَ أَدَبٍ ، تَعْتَزُّ بِهَا لُغَةُ الْعَرَبِ .
كُلُّ مَا أَمْلَأَهُ مِنْ رَوَائِعِ الْفِكْرِ ، أَثْمَنُ مِنْ نَفَائِسِ الدُّرَرِ ! ..
أَقْرَأُ عَلَيْكَ مَا قَالَهُ « أَبُو الْعَلَاءِ » ، فِي تَقْوِيمِ صِغَارِ الْأَشْيَاءِ :
الْعَمَلُ - وَإِنْ قَلَّ - يَسْتَكْثِرُ ، إِذَا اتَّصَلَ وَدَامَ .
لَوْ نَطَقْتَ - كُلَّ يَوْمٍ - لَفُظَةً سُوءٍ :
لَاسْوَدَّتْ صَحِيفَتُكَ فِي رَأْسِ الْعَامِ .
وَلَوْ كَسَبْتَ - كُلَّ يَوْمٍ - حَسَنَةً : عُدِدَتْ - بَعْدَ زَمَنِ - مِنَ الْأَبْرَارِ .
إِنَّ الْيَوْمَ أَتْلَفَ مِنَ السَّاعِ (١) ، وَالشَّهْرَ اجْتَمَعَ مِنَ الْأَيَّامِ ،
وَالسَّنَةَ مِنَ الشُّهُورِ ، وَالْعُمُرَ يُسْتَكْمَلُ بِالسِّنِينَ .
الرَّجُلُ مَعَ الرَّجُلِ : عُضْبَةٌ (٢) ، وَالشَّعْرَةُ مَعَ الشَّعْرَةِ : ذُوَابَةٌ (٣) ..
الْحَجَرُ فَوْقَ الْحَجَرِ : جِدَارٌ .. النَّخْلَةُ إِلَى النَّخْلَةِ : حَائِشٌ (٤) .
الْمَسَافَةُ الشَّاقَّةُ تُطَوَّى بِالْخَطِّ وَالْقَصِيرُ ، كَمَا يُطَوَّى الْعُمُرُ بِالْأَنْفَاسِ .
نَفْسٌ - بَعْدَ مِثْلِهِ - يَتَقَضَّى فَتَمُرُّ الدُّهُورُ وَالْأَخْيَانُ

(١) السَّاعُ : السَّاعَاتُ .

(٢) عُضْبَةٌ : جَمَاعَةٌ .

(٣) ذُوَابَةٌ : الذُّوَابَةُ خَضَلَةُ الشَّعْرِ .

(٤) حَائِشٌ : الْحَائِشُ جَمَاعَةُ النَّخِيلِ .

٣ - حِكْمَةُ الْغَرْبِ

فِي عَهْدِنَا الْحَدِيثِ أَنْفَتَحَتِ الْأَبْوَابُ ، لِاِكْتِسَابِ أَلْوَانِ الْعُلُومِ وَالْآدَابِ .
كَانَ فِي مُقَدِّمَةِ الْوَسَائِلِ التَّعْلِيمِيَّةِ ، اِتِّقَانُ مُخْتَلَفِ اللُّغَاتِ الْحَيَّةِ .
اِفْتَتَنَ مُكْتَسِبُو تِلْكَ اللُّغَاتِ ، بِمَا حَوَتْ مِنْ أَفْكَارٍ وَخَطَرَاتٍ .
ظَلَّ هَؤُلَاءِ يَتَغَنَّوْنَ بِمَا مَلَكَ اِعْجَابَهُمْ فِي أَدَبِهَا مِنْ ثَمَرَاتٍ .
بَعْضُ مَنْ اِتَّقَنُوا اللُّغَاتِ الْأَجْنِبِيَّةَ ، لَمْ يَتَعَمَّقُوا فِي أَدَبِ الْعَرَبِيَّةِ .
ظَنُّوا مَا بَهَرَهُمْ فِي الْآدَابِ الْغَرْبِيَّةِ أَفْكَارًا وَخَوَاطِرَ مُبْتَكِرَاتٍ !
بَيَّنْتُ مَا بَيْنَ الْغَرْبِ وَالشَّرْقِ مِنْ أَفْكَارٍ وَخَوَاطِرَ مُتَشَابِهَاتٍ .
حَرَضْتُ عَلَى التَّنْوِيهِ بِمَا يَنْكَشِفُ لِي فِيهَا مِنْ مُوَافَقَاتٍ .
هَذَا مِثَالٌ لِتَقْوِيمِ صِغَارِ الْأَشْيَاءِ ، تَرْجَمْتُهُ عَنْ أَحَدِ الشُّعْرَاءِ :
« قَطَرَاتُ الْمِيَاهِ ، مِنْهَا مُحِيطٌ . . وَصِغَارُ الْحَصَى ، تُكَوِّنُ أَرْضًا
وَدَقِيقَاتُنَا تُؤَلَّفُ دَهْرًا . . بَعْدَ دَهْرٍ - فِي إِثَرِهِ - يَتَقَضَّى
وَقَلِيلُ الْحَنَانِ وَالْحُبِّ مِمَّا . . يَجْعَلُ الْأَرْضَ جَنَّةَ الْخُلْدِ ، خَفْضًا »
(الْحَفْضُ : التَّنْعُمُ وَالرَّغَائِمَةُ)

(تَمَّتِ الْقِصَّةُ)

بمشاركة هيرسة .	
مكتبة دار الكتب والوثائق القومية	
كيلانى، كامل .	
برميل العسل / بقلم كامل كيلانى - القاهرة :	
ط ٢ - القاهرة ، مكتبة الأديب كامل كيلانى ، ٢٠٠٦	
صفحة : ألوان ٢٥ × ١٧ سم	
١ - سلسلة حكايات جحا	
أ - العنوان : ٢٨ شارع البستان - باب اللوق	
رقم الإيداع : ٢٠٠٦/٧٥٨٥	
٨١٢,٠٢	